الصباح الإسلامية

AL-SABAH

No. 5205 | الأربعاء | 22 ذي الحجة 1446 هـ | 18 يونيو 2025 م | السنة الثامنة عشرة

Alsabah Media www.alsabahpress.com

النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الجفاء وحذر من عقوبته تأليفاً للقلوب

الخصومة تذيب الإيمان .. وعين السخط تعمي عن فضائل الخلق

سلامة الصدر من الأحقاد ليس أروح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرأ من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد. إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها، وأحس فضل الله فيها وفقر عباده إليها، وذكر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر»، وإذا رأى أذى يلحق أحدا من خلق الله رثى له، ورجا الله أن يفرج كربه ويغفر ذنبه، وذكر مناشدة الرسول ربه: إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا وأي عبد لك ما ألَمّا. وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضيا عن الله وعن الحياة، مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضغائن داء عياء، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم!. ونظرة الإسلام إلى القلب خطيرة، فالقلب الأسود يفسد الأعمال الصالحة ويطمس بهجتها ويعكر صفوها، أما القلب المشرق فإن الله يبارك فب قليله، وهو إليه بكل خير أسرع: عن عبدالله ابن عمرو «قيل: يا رسول الله أب الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب صدوق اللسان. قيل: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقى النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد». ومن ثم كانت الجماعة المسلمة حقا هي التي تقوم على عواطف الحب المشترك، والود الشائع، والتعاون المتبادل، والمجاملة الدقيقة، لا مكان فيها للفردية المتسلطة الكنود، بل هى كما وصف القرآن: «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم». إن الخصومة إذا نمت وغارت جذورها، وتفرعت أشواكها شلت زهرات الإيمان الغض، وأذوت ما يوحي به من حنان وسلام.

وعندئذ لا يكون في أداء العبادات المفروضة خير، ولا تستفيد النفس منها عصمة. وكثيرا ما تطيش الخصومة بألباب ذويها، فتتدلى بهم إلى اقتراف الصغائر المسقطة للمروءة والكبائر الموجبة للعنة، وعين السخط تنظر من زاوية داكنة، فهي تعمي عن الفضائل، وتضخم الرذائل وقد يذهب بها الحقد إلى التخيل وافتراض الأكاذيب وذلك كله مما تسخطه الإسلام ويحاذر وقوعه، ويرى منعه أفضل القربات. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى! قال؟ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين». ربما عجز الشيطان أن يجعل من الرجل العاقل عابد صنم. ولكنه وهو الحريص على إغواء الإنسان وإيراده المهالك لن يعجز عن المباعدة بينه وبين ربه، حتى يجهل حقوقه أشد ما يجهلها الوثنى المخرّف، وهو يحتال لذلك بإيقاد نيران العداوة في القلوب. فإذا اشتعلت استمتع الشيطان برؤيتها وهى تحرق حاضر الناس ومستقبلهم وتلتهم علائقهم وفضائلهم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم». ذلك أن الشر إذا تمكن من الأفئدة فتنافر ودها، وانكسرت زجاجتها ارتد الناس إلى حال من القسوة والعناد، يقطعون فيها ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض. وقد تيقظ الإسلام لبوادر الجفاء، فلاحقها بالعلاج، قبل أن تستفحل وتستحيل إلى عداوة فاجرة، والمعروف أن البشر متفاوتون في أمزجتهم وأفهامهم، وأن التقاءهم في ميادين الحياة قد يتولد عنه ضيق وانحراف، إن لم يكن صدام وتباعد. ولذلك شرع الإسلام من المبادئ ما يرد عن المسلمين عوادي الانقسام والفتنة وما يمسك قلوبهم على مشاعر الولاء والمودة، فنهى عن التقاطع والتدابُر. نعم قد يحدث أن تشعر بإساءة موجهة إليك، فتحزن لها وتضيق بها، وتعزم على قطع صاحبها. ولكن الله لا يرضى أن تنتهي الصلة بين مسلم ومسلم إلى هذا المصير. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا. وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث». وفي رواية: «لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمنا فوق ثلاث. فإن مرت به ثلاث فليلقه فليسلم عليه. فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلم من الهجرة» وهذا التوقيت فترة تهدأ فيها الحدة وينفث فيها الغضب، ثم يكون لزاما على المسلم بعده أن يواصل إخوانه، وأن يعود معهم سيرته الأولى، كأن القطيعة غيمة، ما إن تجمعت حتى هبت عليها الريح فبددتها، وصفا الأفق بعد عبُوس.

والإنسان في كل نزاع ينشب، أحد رجلين إما أن يكون ظالما، وإما أن يكون مظلوما، فإن كان عاديا على غيره، ناقضا لحقه، فينبغى أن يُقلع عن غيه وأن يصلح سيرته، وليعلم أنه لن يستل الضغن من قلب خصمه، إلا إذا عاد عليه بما يطمئنه ويرضيه. وقد أمر الإسلام المرء والحالة هذه أن يستصلح صاحبه ويطيب خاطره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه». ذلك نصح الإسلام لمن عليه الحق أما من له الحق فقد رغب إليه أن يلين ويسمح، وأن يمسح أخطاء الأمس بقبول المعذرة، عندما يجيء له أخوه معتذرا ومستغفرا، ورفض الاعتذار خطأ كبير. وفي الحديث: «من اعتذر إلى أخيه المسلم فلم يقبل منه كان عليه مثل خطيئة صاحب مكس». وفي رواية: «من تُنُصِّلَ إليه فلم يَقبل لم يرد عليّ الحوض»، وبهذا الإرشاد المبين للطرفين جميعا يحارب الإسلام الأحقاد، ويقتل جرثومتها في المهد، ويرتقى بالمجتمع المؤمن إلى مستوى رفيع، من الصداقات المتبادلة، أو المعاملات العادلة.

700 آية من القرآن الكريم احتوت على عجائب الدنيا كلها

يزخر القرآن الكريم بالعديد من الآيات التي تشير الى الكون وما به من كائنات (أحياء وجمادات)، والى صور من نشأتها ومراحل تكونها، والى العديد من الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، وما يستتبعه كل ذلك من استخلاص للعبرة وتفهم للحكمة، وما يستوجبه من ايمان بالله، وشهادة بكمال صفاته وأفعاله، وهو - سبحانه وتعالى - الخالق البارئ المصور الذي أبدع الخلق بعلم وقدرة وحكمة لا تحدها حدود، ولا يفيا حقها وصف.

وقد أحصى الدارسون لهذه الاشارات الكونية في كتاب الله ما يقدر بحوالي ألف آية صريحة، بالاضافة الى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة. وبدوام اتساع دائرة المعرفة الانسانية، وتكرار تأمل المتأملين في كتاب الله، وتدبر المتدبرين لآياته - جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر - لا ينفك العلماء والمتخصصون يكتشفون من حقائق الكون الثابتة في كتاب الله ما يؤكد على تحقق الوعد الالهي الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » (فصلت:53).

وبديهي أن يتباين موقف العلماء من تلك الاشارات الكونية في كتاب الله بتباين الأفراد وخلفياتهم الثقافية وأزمانهم، وباتساع دائرة المعرفة الانسانية في مجال الدراسات الكونية التي تعرف اليوم باسم دراسات العلوم البحتة والتطبيقية من عصر الى عصر. وأول من بسط القول في ذلك كان الامام الغزالي (ت505هـ) في كتابيه «احياء علوم الدين» و«جواهر القرآن» والذي رفع فيهما شعارات عديدة منها أن القرآن الكريم يشمل العلوم جميعا، وأن من صور اعجاز القرآن الكريم اشتماله على كل شيء، وأن كل العلوم تشعبت من القرآن الكريم، حتى علم الهيئة، والنجوم، والطب الى آخر ما ذكر.

وتبع الامام الغزالي في ذلك كثيرون من العلماء المعاصرين الذين أضافوا اضافات أصيلة الى هذا الموضوع مما أدى الى «بروز المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم»، والذي يعتمد في تفسير الاشارات الكونية الواردة في كتاب الله على ضوء من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، مع تفاوت في ذلك من عصر الى عصر.

ويعتبر تفسير الرازي المعنون «مفاتيح الغيب» أول تفسير يفيض في بيان المسائل العلمية والفلسفية، خاصة ما يتعلق منها بعلم الهيئة، وغير ذلك من العلوم والفنون التي كانت معروفة في زمانه، والتي كان هو على دراية بها.

أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهري والمعنون «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» فيقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا، حاول فيها الشيخ - يرحمه الله - تفسير القرآن الكريم تفسيرا يتجاوب مع روح العصر وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها والسنن الالهية التي تحكمها؛ ليبرهن للقارئ أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي على كل ما وصل وما سيصل اليه البشر من معارف.

هذا وقد نعى الشيخ الجوهري - يرحمه الله - على علماء المسلمين اهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم، وتركيز جهودهم على الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: «لماذا ألف علماء الاسلام عشرات الألوف من الكتب في علم الفقه، وعلم الفقه ليس له في القرآن الكريم الا آيات قلائل لا تصل الى مئة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقلّ جدا في علوم الكائنات التي لا تكاد تخلو منها سورة ؟» ; ولذا فاننا نجده في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الى المسلمين يقول فيه: «يا أمة الاسلام، آيات معدودات في الفرائض - يقصد آيات الميراث - اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الاسلام.. هذا زمان رقيه، يا ليت شعري، لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في علوم الميراث ؟»، ثم يضيف: «ان نظام التعليم الاسلامي لابد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن الكريم، بل هي علوم لفظه، وما نكتبه اليوم (يقصد في تفسيره) علوم معناه..».

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من اشارات الى مختلف الدراسات الحديثة; بل انه قد استعان في هذا التفسير - الفريد من نوعه - بكثير من صور النباتات والحيوانات والظواهر الكونية، والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها «حساب الجمل» المعروف.

وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير - كما اعتبر من قبل- جنوحا الى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والايمانية; استنادا الى الحقيقة المسلمة: أن القرآن الكريم لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها; وانما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب:عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الانسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة.

والقرآن العظيم حين يلفت نظر الانسان الى مختلف مظاهر هذا الوجود انما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل اقامة الحجة البينة على الجاحدين من الكافرين والمشركين ومن قبيل التأكيد على احاطة القدرة الالهية بالكون وبكل ما فيه، وعلى حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود الى رحمة ذلك الخالق العظيم ورعايته.

أساليب المشركين في محاربة الإسلام

محاولات فاشلة لتشويه دعوة الرسول

قام مشركو مكة بمحاولة تشويه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولذلك نظمت قريش حرباً إعلامية ضده لتشويهه، قادها الوليد بن المغيرة، حيث اجتمع مع نفر من قومه، وكان ذا سن فيهم، وقد حضر موسم الحج فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا، ويرد قولكم بعضه بعضا.

فقالوا: فأنت يا أبا عبدشمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

فقالوا: نقول كاهن.

فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكهان فما هو بزمزمة الكاهن وسجعه.

فقالوا: نقول مجنون.

فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو تخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته.

فقالوا: نقول شاعر.

فقال: ما هو بشاعر، قد عرفنا الشعر برجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر.

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثه، ولا عقده.

قالوا: فما نقول يا أبا عبدشمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحر، فقولوا: ساحر يفرق بين المرء وبين أبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

فأنزل الله تعالى في الوليد: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا، سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) [المدثر: 26-11].

ويتضح من هذه القصة أن الحرب النفسية المضادة للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن توجه اعتباطا، وإنما كانت تعد بإحكام ودقة بين زعماء الكفار، وحسب قواعد معينة، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النفسية في العصر الحديث، كاختيار الوقت المناسب، فهم يختارون وقت تجمع الناس في موسم الحج، والاتفاق وعدم التناقض، وغير ذلك من هذه الأسس حتى تكون حملتهم منظمة، وبالتالي لها تأثير على وفود الحجيج، فتؤتي ثمارها المرجوة منها، ومع اختيارهم للزمان المناسب، فقد اختاروا أيضا مكانا مناسبًا حتى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكة، ويتضح من هذا الخبر عظمة النبي صلى الله عليه وسلم وقوته في التأثير بالقرآن على سامعيه، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبر والتعاظم فإنه قد تأثر بالقرآن، ورق له، واعترف بعظمته ووصفه بذلك الوصف البليغ، وهو في حالة استجابة لنداء العقل، ولم تستطع تلك الحرب الإعلامية المنظمة أن تحاصر دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يخترق حصار الأعداء، الذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشويه سمعته عندهم، بل صاروا يتلقون الوافدين إليهم ليسمموا أفكارهم، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه، والتأثر بدعوته، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عظيم النجاح في دعوته، بليغا في التأثير على من خاطبه، حيث يؤثر على من جالسه بهيئته وسمته ووقاره، قبل أن يتكلم، ثم إذا تحدث أسَر سامعيه بمنطقه البليغ المتمثل في العقل السليم، والعاطفة الجياشة بالحب والصفاء، والنية الخالصة في هداية الأمة، بوحي الله تعالى. ومن أبرز الأمثلة على قوته في التأثير بالكلمة المعبرة والأخلاق الكريمة، وقدرته على اختراق الجدار الحديدي الذي حاول زعماء مكة ضربه عليه، ما كان من موقفه مع ضماد الأزدى، وعمرو بن الطفيل الدوسي، وأبي ذر، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم.